العرب
الجمعة 2021/11/19
السنة 44 العدد 12245

الغرافيتي يعود إلى المدن العربية مدجّنا ومقلّم الأظافر

فن ولد في كنف التمرّد والسرّية أفقدته الوظيفة التزيينية روحه الأصلية

على فن الغرافيتي العربي أن يكون متسقا مع هوية المدينة

مأسسة فن الغرافيتي عربيا أدخلته بيت الطاعة

فن أشبه بنشرة سرّية محظورة

يعتبر الغرافيتي أو الرسم على الجدران سيّد فنون الشارع، لما يتّصف به من جرأة وتمرّد على المحظور. وقد ازدهر في المدن الأوروبية والأميركية، لكن العالم العربي بدأ يتعرّف عليه في نسخة يشوبها التقليد وترعاها مؤسّسات رسمية على سبيل التزيين، ممّا أفقده خصوصيته رغم أن للكتابة والرسم على الجدران حضورا لافتا في الأحياء العربية الفقيرة في الغالب.

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

أغلب الظن أن فن الغرافيتي كشكل تعبيري يرتبط بالتمرّد والثورة على القيم السائدة. لم يهجر جدران المدن العربية كي نقول إنه قد أزهر فوقها وازدهر في السنوات الأخيرة بل، في اعتقادي، أنه عاد إليها مدجّنا ومقلّم الأظافر بواسطة مؤسّسات رسمية ومعارض منظمة بعد أن كان يمارس في كنف السرية كوسيلة لا غنى عنها للاحتجاج وتحدّي سلطتي الدولة والمجتمع.

> ماذا يعني أن تقيم جدارية لأحد نجوم البوب أو الجاز وأنت في مدينة عربية ذات تركيبة ريفية يرقص أهلها الدبكة

ولعلّ خير دليل على "سرية" فن الكتابة والرسم على الجدران بالبخاخات وأدوات الحفر والتلوين والطباعة البسيطة المتاحة، هو الفنان الإنجليزي الشهير بانكسي الذي ظهرت رسوماته المختلفة في العديد من المواقع في بريطانيا وحول العالم منها في الضفة الغربية على الجدار العازل، لكن لا أحد يعرف شكله أو اسمه الحقيقي أو أي تفاصيل خاصة عنه.

فن نكران الذات

هذا الفن الذي عادة ما يمارس في كنف السرية وتحت جنح الظلام، بدأ بتناول المحظور والممنوع والمسكوت عنه فوق جدران الأحياء الفقيرة المظلمة لتشرق عليها الشمس في صباح اليوم التالي، فيقرأها ويشاهدها الناس مثل نشرة سرية محظورة، وقد اشترك جميعهم في قراءتها علنا وعلى الملأ.

هل جرّد العالم اليوم فن الغرافيك من جاذبيته التي تزيدها السرية ألقا ليتخلى عن تمرّده و"يُمأسس" ويدخل بيت الطاعة عبر الملتقيات والتظاهرات المقامة في وضح النهار وتحت الأضواء وفوق منصات التتويج وعلى إيقاع الجوائز والتكريمات؟

وعلى ذكر الجوائز والتكريمات، ففي تاريخ الحادي والعشرين من مايو 2007 حصل بانكسي على جائزة أعظم فنان يعيش في بريطانيا، والتي وزّعتها قناة "أي.تي.في" البريطانية وكما كان متوقعا لم يحضر بانكسي لاستلام جائزته واستمرت شخصيته مجهولة حتى اللحظة.

والفنان الذي ظهرت أولى رسوماته عام 2003 على جدران بريستول ولندن، وأثارت العديد من التساؤلات حول شخصه وأفكاره خصوصا صورة الموناليزا وهي تحمل قطعة سلاح، يقيم الدليل في كل مرة على أن الغرافيتي فن يشترط "نكران الذات" كمبدأ ثوري نضالي بامتياز، هذا بالإضافة إلى خلخلة المفاهيم السائدة حول تحنيط الفن وتمجيده كما يظهر من خلال امرأة ليوناردو دافنشي التي استعاضت عن جمالها وتسلحت بسلاح تحمله بين يديها.

وبالعودة إلى جدران بعض المدن العربية التي طالما ألصقت فوقها صور الزعماء والحكام، وحملت شعارات الطاعة والتأييد، فإنها لم تخل كذلك من رسومات وكتابات تتمرّد على الواقع وقد كتبت في جنح الظلام، وجاهدت شرطة الأنظمة البوليسية والعسكرية في محو آثارها صباح اليوم التالي.

صحيح أن ما كان يُرسم ويكتب على جدران المدن العربية في ثمانينات وتسعينات القرن الماضي، لم يكن ذا قيمة وازنة على مستوى الشكل والمحتوى، افتقد إلى الجماليات، وتضمّن الكثير منه عبارات نابية أو حتى عنيفة اللفظ كشتم من يرمي القمامة هنا أو هناك، لكن تلك "الخربشات" كانت تنتمي إلى فن الغرافيك شئنا أم أبينا، وذلك لتوفر عناصر التلقائية والفردية والسرية، أي أنها بعيدة عن التنظيم المؤسساتي.

أما اليوم، وقد بات لهذا الفن الذي نظنه وافدا من الخارج، ملتقيات وورش وجوائز وتظاهرات، فإنه في أغلبه قد جاء إلينا نسخة باهتة ومقلّدة لما تتضمّنه شوارع وجداريات المدن الأوروبية والأميركية.

تبدو لنا صورة الغرافيك في المدن العربية خالية من الروح، لأنها تنزع نحو التقليد وتروم الغاية التجميلية، وليس الفنية النابعة من هوية المدينة ومزاج سكانها.

ماذا يعني أن تقيم جدارية لأحد نجوم البوب أو الجاز أو الفوتبول الأوروبي وأنت في مدينة عربية ذات تركيبة ريفية يرقص أهلها الدبكة، ينفخون في الشبابة ويأكلون المنسف أو الكسكسي.

خلل قاتل

الأمر هنا لا يتعلق برفض فنون العالم والاكتفاء بالانغلاق على الذات رافضين شتى أشكال العولمة بمفهومها الثقافي لا السياسي، وإنما الحاجة إلى ما يشبه مدننا وسكانها وتطلعات شبابها.

الغاية التجميلية من جهتها تسلب فن الغرافيك رونقه، وتجعله مجرّد أداة للتزيين و"ستر العيوب العمرانية"، في حين كان يمكن ملء هذا الفراغ بما يشبهه أو يعوّضه جماليا أو حتى الاستغناء عن هذه المهمة التزيينية ربما يكون أنفع وأفضل.

وهذا الخلل الذي أصاب فن الغرافيك في مقتل لدى المدن العربية جاء بسبب تبني المؤسّسات الرسمية والحكومية لتلك المشاريع التي لا تخرج عن كونها ماكينة دعائية لبلدية أو وزارة أو أي جهة رسمية.. ومن هنا تصحّ القاعدة: إن الدولة إذا دخلت في فنون الشارع بالتنظيم والتوجيه، أجهزت عليها وقتلتها.

لنوكل الأمر إلى المجتمع المدني والجمعيات الأهلية والمبادرات الفردية.. المبادرات الفردية هي الروح التي يتنفس من خلالها فن الغرافيك وكل فنون الشارع بصفة عامة.

الجداريات كانت ولا تزال موقفا احتجاجيا بامتياز، ومنذ قدماء الفراعنة الذين سخر أحد العمال من بنائي الأهرام من وضعه المعيشي المزري فرسم على جدار كهفه الذي يأوي إليه بعد يوم شاق، غرابا يطلع السلم درجة درجة والعرق يتصبّب من ريش جناحيه.. واعتبر مؤرخو الفن هذا الرسم أول جدارية تكتشف في فن الغرافيتي.

> بانكسي في رسمه للموناليزا وهي تحمل بين يديها قطعة سلاح يقيم الدليل على أن الغرافيتي فن يشترط الثورية والنضال بالأساس

وهكذا يعتبر الغرافيتي إذن أقدم وسيلة للتعبير استخدمها البشر، وبهذا المنطق يبرّر رسامو الغرافيتي لأنفسهم "احتلال" المساحات العامة بألوانهم ونقوشهم، "لعل أجيال المستقبل ستتعرّف إلى حياتنا الحالية من خلال هذه الرسوم" كما يقول أحدهم، أي أنه يقوم بوظيفة توثيقية إلى جانب قيمته الجمالية.

الصدام مع السلطات الحاكمة في المدن، شرط بل يكاد يكون أمرا لا بد منه في فن الغرافيتي، حيث أسّست في نيويورك فرقة خاصة بمكافحة رسوم الشوارع لإزالة تلك "البشاعات"، كما يصفها شرطي، عن جدران المدينة.

وينبغي التذكير بأن البلديات وأصحاب العمارات في الولايات المتحدة، صرفت الملايين لإيقاف هذا النوع من الفن، إذ كانت تعمل باستمرار على إزالة تلك الرسوم من خلال إعادة طلاء الجدران، دون جدوى؛ فاستسلمت تلك البلديات للأمر الواقع لتخصّص بعض الحيطان للغرافيتي، تاركة إياها لإبداع الرسامين.

بعد هذه المسحة العابرة لفن الغرافيتي وملابسات نشأته، هل يمكن القول إن لهذا الفن مستقبلا في المدن العربية؟ سؤال في عهدة هذه "المدن"، طبيعة تركيبتها والقائمين عليها، والأهم من ذلك واقع حرية هذا الفن في العالم العربي الذي رافق ما يعرف بـ"الربيع العربي" في كل من مصر وتونس وسوريا والسودان الآن، إذ دعا ناشطون عبر رسائل نصية ورسوم غرافيتي على الجدران، السودانيين إلى التظاهر بكثافة لإعادة السلطة إلى المدنيين وتجنيب البلاد الغارقة في ركود سياسي من دكتاتورية عسكرية جديدة.

الغرافيتي فن احتجاجي وليس سترا للعيوب العمرانية

مساحة الحرية تمنح الإنتاج الأدبي التونسي تجديدا في لغته وطرحه

تونس - يشهد الإنتاج الأدبي التونسي بفضل مساع ومبادرات الناشرين المحليين وإقبال القرّاء على الكتاب باللهجة العامية والفرنسية، موجة تجديد مع تواصل ارتفاع تكلفة الكتاب المستورد.

ويقام حاليا في العاصمة تونس، معرض تونس الدولي، الذي يعود بعد غياب سنتين بسبب تفشي وباء كورونا، ويقدّم الناشرون خلاله تخفيضات على الكتب تصل إلى عشرين في المئة، كما كانت العادة طوال أسبوع التظاهرة في السنوات الماضية.

وتشارك في الدورة السادسة والثلاثين للمعرض نحو عشرين دولة، وضيفة الشرف فيه هي موريتانيا. ويعرض ما لا يقل عن مئة وخمسين عارضا وثلاثمئة ناشر عربي ودولي كتبا وروايات وغيرها من الإنتاجات الأدبية.

ويعتبر الروائي التونسي يامن المناعي الذي أصدر روايته الخامسة الناطقة بالفرنسية "بل أبيم" (الهاوية الجميلة) في سبتمبر الماضي أن "ثمة تجديدا في المشهد الأدبي التونسي، والعديد من المدوّنين والمؤثّرين وثمة انجذاب لبعض الإصدارات الجديدة والكتب ولمجموعة من الكتّاب الذين يتابعهم الجمهور ويشجعهم".

ويرى أن ذلك ناتج عن "تداعيات الاضطرابات التي عرفتها البلاد خلال ثورة الرابع عشر من يناير 2011، حيث باتت هناك رغبة في الحياة من جديد إثر سنوات من الجمود".

ويلفت إلى أنه وخلال حكم الرئيس الراحل زين العابدين بن علي والذي أطاحت انتفاضة شعبية بنظامه في العام 2011، لم يكن أي كتاب يصدر من دون أن يمرّ قبل ذلك بقسم الرقابة.

ويلاحظ الروائي أن الأدب التونسي اليوم "يستطيع التطرّق إلى تابوهات ومواضيع كانت محرمة تتعلق أحيانا بالحميمية".

وتقدّم الفلسطينية التونسية إليزابيت دلدول وهي ناشرة لكتب المناعي وأنشأت دار "إليزاد" (2005) وتساعد كتّابا وروائيين آخرين على غرار علي البشير، قراءة مشابهة للمناعي.

وتقول إن "ثمة مواضيع لا يخوض فيها الكتّاب من الأجيال السابقة، إلاّ أن شباب اليوم أقلّ تعرضا لهذا النوع من الضغط".

وتقدّم دار إليزاد روايات بأسعار منخفضة (عشرة دنانير، أي نحو ثلاثة يوروهات) ليتمكن القرّاء من الشراء.

ويبيّن مدير مكتبة "الكتاب" في شارع الحبيب بورقيبة بالعاصمة تونس جمال الشريف أن ثمة طفرة في الأدب التونسي، وخصوصا في الإنتاجات بالدارجة التونسية (اللهجة المحلية).

ويستدلّ الشريف برواية "هستيريا" للكاتبة فاتن الفازع، والتي تطرّقت فيها إلى مواضيع تتعلق بالحياة الجنسية والبغاء والمثلية. ويقول "بعنا في أقل من شهر ثمانمئة نسخة، أي بمعدل ثمان وثلاثين نسخة في اليوم".

ويعزو الشريف هذا النجاح إلى الاختيار في أسلوب الكتابة "حتى من لم يضع كتابا بين يديه من قبل باستطاعته قراءة الرواية"، وكتب الفازع تتحدّث عن اليومي وعن قصص أحيانا حميمية.

ومن بين قصص النجاح الأخرى كتب حسنين بن عمو والتي يخلط فيها بين اللغة العربية الأدبية والعامية التونسية في سرد تاريخ تونس عبر قصص شخصيات على غرار رواية "رحمانة".

ويرى الشريف أن "القرّاء ما عادوا يرغبون بقصص معقدة في ظل الوضع الحالي في تونس والأزمة السياسية والاقتصادية والصحية، بل يبحثون دوما عن كتب تُعالج حياتهم اليومية وتسرد أوضاع مجتمعهم وتقاليده ونمط عيشه".

يامن المناعي

الأدب التونسي بات يتطرق إلى تابوهات كانت محرمة سابقا

ومن دون شك فإن "عامل السعر يفسّر كثرة الإقبال على الكتب التونسية، لأنها أقل بكثير من بقية الكتب العربية والأجنبية".

وترى الناشرة لدلدول ضرورة تشجيع التونسيين على الإقبال على الكتب، وتضيف "منذ العام 2011 انتشرت نوادي المطالعة في كل أنحاء البلاد" على غرار محافظتي القيروان (وسط) ونابل (شرق).

وتضيف دلدول في بلد "رائد منذ زمن" توجد فيه أربعمئة مكتبة عمومية للمطالعة، "يجب أن تتوافر إرادة سياسية لدعم الكتاب المدرسي وتدريب مسؤولين عن المكتبات"، وهي تدعو إلى جمع الناشرين بنوادي القراءة لكي تصبح المكتبات "فضاءات للتبادل" ومكانا متاحا لكل التونسيين ويقبلون عليها.

ويشمل برنامج معرض تونس الدولي للكتاب في دورته السادسة والثلاثين الممتدة حتى الحادي والعشرين من نوفمبر الجاري ندوات فكرية وعشرين لقاء حواريا مع ثلة من الأدباء والمفكرين والشعراء من داخل تونس وخارجها، وكذلك قراءات أدبية ومنتديات للشباب وأنشطة خاصة للطفل.

وحافظ المعرض على البرنامج الموجه للطفل، إذ يقام بالشراكة مع وزارة التربية وإدارة المطالعة بوزارة الشؤون الثقافية، ويتمّ خلاله تنظيم ورشات ومسابقات وعروض تنشيطية ترفيهية لفائدة الأطفال المرافقين لأوليائهم، أو بالنسبة إلى التلاميذ القادمين في رحلات خاصة تنظمها وزارة التربية لفائدتهم من مختلف جهات البلاد.

تواكب الدورة الحالية ذكرى مرور ستين عاما على تأسيس وزارة الثقافة التونسية، وبهذه المناسبة كرّم المعرض الشاذلي القليبي (1925 – 2020) أول من تولى الوزارة والبشير بن سلامة الذي تولى الوزارة من 1981 إلى 1986.

كما احتفى المعرض بالإعلامي فرج شوشان الذي كرّس مسيرته للاهتمام بالإنتاج الأدبي والتعريف بالكتاب التونسي وكتابه وناشريه، والإعلامية سيدة الدو القايد التي وثقت عبر مشوارها الصحافي سيرة الأدباء والكاتبات التونسيات.

ثورة 2011 صالحت التونسيين مع منجزهم الأدبي